جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
المجلة العلمية

" من أساليب العرب وطرقهم الكلامية القرآنية دراسة تحليلية

إعداد

د/ هيفاء بنت عبد الرحمن بن محمد الحواس

أستاذ النحو والصرف المشارك – قسم اللغة العربية -كلية الآداب- جامعة الملك فيصل بالأحساء - المملكة العربية السعودية

(العدد الثامن والثلاثون)

(الإصدار الأول .. فبراير)

(١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م)

علمية- محكمة- ربع سنوية

الترقيم الدولي: ISSN 2535-177X

من أساليب العرب وطرقهم الكلامية القرآنية دراسة تحليلية.

هيفاء بنت عبد الرحمن بن محمد الحواس

قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة الملك فيصل بالأحساء، المملكة العربية السعودية.

البريد الإلكتروني: h-alhawass@hotmail.com

الملخص:

أبرزت هذه الدراسة ستة من الأساليب التي استعملها القرآن في بيانه المعجز، وعمدت الدراسة إلى جمع مواضع هذه الأساليب من القرآن الكريم، ومن الشواهد العربية، وتحليلها، وذكر آراء النحاة واللغويين والمفسرين فيها، وخلصت الدراسة إلى أن خروج أسلوب القرآن في بعض مواضعه عن التجانس في باب المعطوفات هو من التفنن الفائق المعجز، وله حكمته البالغة، وأن الاستثناء بالمشيئة من مبتكرات القرآن، وأن بعض مواضعه لا توصف باتصال ولا بانقطاع، وإنما هو أدب محض مع الله تعالى، وإلى أنه لا يكون شيء إلا بتقديره ومشيئته سبحانه، وأن توحيد الضمير بعد المثنى فيما يخص الله تعالى ورسوله جاء في ثلاثة مواضع؛ تحقيقًا لعقيدة توحيد الله تعالى، وإفراده، فلا يُثنى مع الله تعالى أحد. واستخدام أسلوب النهي في قولهم (لاتسأل عن كذا) يوحي بعظمة هذا الأمر، وتعبير القرآن عن العمل بالطائر؛ لارتباط العرب بعادة زجر الطير، واستعماله في كلامهم، وقد اتبعتُ في هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي والمقارن أحيانا، الذي يعتمد على جمع تلك الأساليب القرآنية من كتاب الله تعالى، ومن كتب النحو واللغة؛ بغرض معرفتها وحفظ صورها لاستخدامها في حديثنا وكتاباتنا.

الكلمات المفتاحية: الأسلوب القرآني، العطف، الاستثناء، توحيد الضمير، لا تسأل عن كذا. الطير.

From the styles and methods of the Arabs in the Qur'anic speech, an analytical study.

Haifa bint Abdul Rahman bin Muhammad Al-Hawas
Department of Arabic Language, Faculty of Arts, King Faisal University in Al-Ahsa, Kingdom of Saudi Arabia.
Email: h-alhawass@hotmail.com

Abstract :
This study highlighted four of the methods used by the Qur'an in its miraculous statement, and the study deliberately collected the positions of these methods from the Holy Qur'an, and from the Arabic evidence, and analyzed, and mentioned the words of grammarians and interpretation scholars about them,The study concluded that the departure of the style of the Qur'an in some places for homogeneity in the section of the Ma'atfat, is one of the super-miraculous art, and has its extreme wisdom, and that the exception by will of the innovations of the Qur'an, and that some of its places are not described by connection or interruption, but it is pure literature with the Allah Almighty, and that it is nothing but his appreciation and will Almighty, and that the unification of conscience after Muthanna with regard Allah to the Allah Almighty and His Messenger came in three places; With Allah exalted one, The use of the method of prohibition in their saying (do not ask for such) suggests the greatness of this matter, and the expression of the Qur'an about working with the bird, because the Arabs are associated with the custom of restraining the bird, and its use in their speech, In this research, I followed the descriptive, analytical, and sometimes comparative approach, which depends on collecting these Qur'anic styles from the Book of God Almighty, and from books of grammar and language; with the aim of knowing them and preserving their images for use in our speech and writing.

Keywords: Quranic style, Kindness, Exception, Unification of conscience, Don't ask for such. Bird

المقدمة

الحمد لله الذي علّم البيان، وجمَّل البيان بالقرآن، وجعل اللسان العربي فوق كل لسان، والصلاة والسلام على سيّد الأنام، وخير من أبان، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه الكرام، ومن سار على هديه واقتفى أثره إلى يوم حشر الأنام، أما بعد..

فالقرآن الكريم هو كتابُ الله المعجز، ومن ثمَّ كان له طابعه الخاص، وله أسلوبه، وله طريقته التي انفردَ بها في تأليف كلامه، واختيار ألفاظه. ولا غرابة؛ فإنه كلام إلهي، وقف أمامه العرب عاجزين عن الإتيان بسورة من مثله.

وحينما نظرتُ في هذا الكتاب العظيم وجدتُ أنه لم يخرج عن معهود العرب في لغتهم العربية من حيث مفرداتها وجملها وقوانينها العامة، بل جاء كتابًا عربيًا جاريًا على مألوف العرب، فمن حروف لغة العرب وكلماتها تألفت كلمات القرآن العظيم.

ولذلك من وقف على لغة العرب في شعرها ونثرها من أصحابها الفحول، ووقف على هذا الكتاب العظيم متدبرًا متأملًا؛ لابد وأن يدرك أن هناك أساليب جاء بها القرآن الكريم كانت العرب قد استخدمتها وأتت بها؛ فالعربية حينما نزل القرآن بها كانت قد بلغت ذروة الكمال اللغوي، وكان ذلك الجيل الذي نطق بها قد بلغ ذروة كمال البيان الإنساني. فقد كان أقدر جيل على البيان والتبيين.

وأساليب القرآن ـ مع تنوع الموضوعات التي يطرقها ـ فإن لها صلة بالنحو والبلاغة وغيرهما، وقد رأيتُ أن أجمع ما تيسر لي من تلك الأساليب القرآنية التي استخدمها العرب في لغتهم، وهو علمٌ شريفٌ، قليلٌ طلاَّبه، عظيمةٌ آثاره، تُجلي حلاوة هذا الكتاب، وتظهر طلاوته؛ لما أودع فيه من حُسن التأليف، وبراعة التركيب.

أولًا: موضوع البحث:

النظر في أساليب القرآن الكريم، واختيار بعض الأساليب النحوية، واللغوية التي نطق بها العرب في لغتهم، وتناول كل أسلوب بشكل مستقل، وبيان أقوال العلماء فيه، والشواهد التي جاءت عن العرب بمثله.

ثانيًا: مشكلة البحث:

يحاول هذا البحث إبْرَاز بعض الأساليب القرآنية النحوية، واللغوية التي نطق بها العرب، وبيان المواضع التي تستخدم فيها مثل هذه الأساليب؛ ليُنتهج نهجها ويعلوَ بها مستوى العربي في حديثه.

ثالثًا: حدود البحث:

جمع ما يتيسر من الأساليب القرآنية النحوية، واللغوية التي نطق بها العرب بما يتناسب وهذا البحث، بحيث يتم تناول كل أسلوب بشكل مستقل، وبيان أقوال العلماء فيه، والشواهد التي جاءت عن العرب بمثله.

رابعًا: أهداف البحث:

يحاول هذا البحث الكشف عن عدة أمور، منها:

أولًا: بعض الأساليب القرآنية النحوية، واللغوية الموجودة في القرآن الكريم التي تحدث بها العرب في لغتهم.

ثانيًا: أقوال علماء اللغة في هذه الأساليب، وبيان أصالتها.

ثالثًا: الاستفادة من هذه الأساليب في كتاباتنا وأحاديثنا، والرقي بلغتنا.

خامسًا: منهج البحث:

اتبعتُ في هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي والمقارن أحيانا، الذي يعتمد على جمع تلك الأساليب القرآنية من كتاب الله تعالى، ومن كتب النحو واللغة؛ بغرض معرفتها وحفظ صورها لاستخدامها في حديثنا وكتاباتنا.

سادسًا: الدراسات السابقة:

هناك دراسات لا بأس بها كُتبت عن أساليب العربية في القرآن الكريم، ومنها:

١. أساليب البيان في النحو العربي، وهي رسالة دكتوراة للدكتورة: خديجة بنت عبدالله الصبان، إشراف: محمد إبراهيم البنا، جامعة أم القرى بمكة المكرمة، (١٤١٤هـ ١٩٩٤م)، وهذه دراسة شملت النعت، والحال، والبدل، وعطف البيان، والتمييز، والإضافة، ووظائف كل منها. بينما جاءت دراستي حول ستة أساليب تدور حول موضعين من عطف النسق، والاستثناء، وأخرى لغوية لم ترد في الدراسة المذكورة آنفًا، مما أدى إلى الاختلاف بينهما.

٢ـ الأساليب العربية في القرآن من خلال كتب معاني القرآن، وأثرها في التفسير، رسالة ماجستير، للأستاذ: إياد بن موسى بن محمود إسماعيل، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، (١٤٢٩هـ).

٣. الأساليب العربية الواردة في القرآن الكريم وأثرها في التفسير من خلال جامع البيان للإمام الطبري، دراسة ماجستير للأستاذ فواز بن منصور الشاووش، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، (١٤٣٤هـ).

وكلتا الدراستين متعلقة بمدونات محددة، فالأولى محددة بكتب معاني القرآن الكريم، والثانية محددة بتفسير الطبري، وقد تناولت الأولى خمسة وعشرين أسلوبًا، والثانية اشتملت على أكثر من ستين أسلوبًا. اثنان من الأساليب المذكورة اتفقت مع دراستي، والأساليب الباقية غير مذكورة لديهم، كما أن منهجي في الدراسة مختلف عن منهجهما، فقد دعمتُ دراستي بأقوال أهل اللغة والنحو، وأكثرتُ من الشواهد الشعرية المناسبة لتلك الأساليب.

٤ـ من أساليب القرآن، كتاب للأستاذ فاضل السامرائي في سلسلة الدراسات البيانية في الأسلوب القرآني، كلية الآداب، الجامعة الأردنية (١٤٠٧هـ . ١٩٨٧م)، كتب عن أسلوب الدعاء، والنداء، وأسلوب القسم، والتوكيد،

وكذلك أسلوب التعجب، وأسلوب التفضيل. وهو مختلف عن دراستي، فلم أتطرق لتلك الأساليب البتة.

٥- من أساليب القرآن الكريم في كسر أفق التوقع، للأستاذ أحمد بن سعد الخطيب، مجلة الدراسات القرآنية في عددها العاشر، وهي دراسة تحدثت عن أسلوب الالتفات، والتضمين، والتهكم، وغيرها، ودراستي لم تتطرق لهذه الأساليب. فقد اشتملت على ستة أساليب؛ اثنان منها في المتعاطفات المتغايرة، وواحد في الاستثناء بالمشيئة، والرابع: عن توحيد الضمير العائد على المثنى، والخامس: في استخدام أسلوب (لا تسأل عن كذا) للتعظيم، والأخير: في تعبير القرآن عن العمل بالطائر.

سابعًا: خطة البحث:

جاءت الدراسة في مبحثين، بعد مقدمة وتمهيد.

أمَّا المقدمة فتشمل: أهمية الموضوع، ومشكلته، وحدوده، وأهدافه، ومنهجه، والدراسات السابقة، والخطة.

وأمَّا التمهيد فيشمل: تعريف الأسلوب، لغَة واصطلاحًا.

وأما المبحث الأول فبعنوان: من الأساليب النحوية، وهي:

الأسلوب الأول: اختلاف معطوف من بين معطوفات عدة متفقة.

الأسلوب الثاني: عطف الفعل على الاسم المشبه له.

الأسلوب الثالث: الاستثناء بالمشيئة.

الأسلوب الرابع: توحيد الضمير بعد المثنى.

وأمَّا المبحث الثاني فبعنوان: من الأساليب اللُغوية، ويشمل أسلوبين، هما:

الأسلوب الأول: التعبير عن التعظيم بقول: (لا تسأل عن كذا).

الأسلوب الثاني: التعبير عن العمل بالطائر.

ثم الخاتمة، وبها أبرز النتائج، والتوصيات، ثم فهرس المراجع.

التمهيد

تعريف الأسلوب:

لغة: جاء في اللسان: "يقال للسطر من النخيل: أسلوب. وكل طريق ممتد، فهو أسلوب. قال: والأسلوب: الطريق، والوجه، والمذهب. يقال: أنتم في أسلوب سوء، ويجمع على أساليب. والأسلوب: الطريق تأخذ فيه. والأسلوب . بالضم . : الفن؛ يقال: أخذ فلان في أساليب من القول أي أفانين منه"(١)، وقال عنه الكفوي: الفن والطريقة(٢).

وفي الاصطلاح: عرفه الزُّرقاني في مناهل العرفان بأنه:" الطريقة الكلامية التي يسلكها المتكلم في تأليف كلامه، واختيار ألفاظه، أو هو المذهب الكلامي الذي انفرد به المتكلم في تأدية معانيه ومقاصده من كلامه، أو هو طابع الكلام أو فنه الذي انفرد به المتكلم كذلك"(٣).

وبناء على هذا فإن لكل متكلم، ولكل كاتب أسلوبه وطريقته التي يتحدث أو يكتب بها، وعلى هذا تتنوع أساليب المتكلمين والكاتبين بتنوعهم، بل وتتنوع أساليب الشخص نفسه بتنوع الموضوعات التي يتناولها، والأفانين التي يعالجها.

وكلما علا علم الإنسان وسمت حاسته البيانية، علا أسلوبه وجمُل، وبلا مجادل فأسلوب القرآن الكريم فوق كل أسلوب؛ ولا غرابة فهو كلام الله تعالى المنزل من عنده المتعبّد بتلاوته، المعجز في نظمه.

وعلى الرغم من أن مفردات لغة القرآن هي مفردات العربية، والتراكيب واحدة، إلا أنَّ طريقة النظم هي التي أعجزت العرب الفصحاء فوقفوا أمام هذا الكتاب العظيم عاجزين عن الإتيان بسورة من مثله، فللقرآن الكريم أسلوب خاص انفرد به في تأليف كلامه، واختيار ألفاظه.

---

(١). لسان العرب لابن منظور (س، ل، ب).

(٢) . الكليات للكفوي (٨٣/١).

(٣). مناهل العرفان للزرقاني(٣٠٣/٢).

المبحث الأول: الأساليب النحوية

١.الأسلوب الأول:

اختلاف معطوف من بين معطوفات عدة متفقة:

في باب التوابع، يتبع التابع متبوعه في الحالة الإعرابية؛ سواء كان نعتًا، أو توكيدًا، أو بدلًا، أو عطفًا، فلا يُفردُ له حكمٌ مستقل، بل حكمه تابع لمتبوعه. وهذا مانراه عيانًا في كتاب ربنا العزيز، وفي كلام سيد المرسلين في الأحاديث النبوية الصحيحة، وفي كلام العرب، ومن ذلك على سبيل المثال:

قوله سبحانه:" ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾﴾ [النَّبَإ: ٣١ - ٣٣]﴿ وقوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد: ٣] وقوله ﷺ:" بُني الإسلام على خمسٍ: شهادةِ ألاَّ إله إلا الله، وأن محمدًا رسولُ الله، وإقامِ الصلاة، وإيتاءِ الزكاة..."(١).

إلا أن هناك آيات كريمة جاء فيها المعطوف مختلفًا في الحالة الإعرابية عن المعطوف عليه، فتحدّث مَنْ لا علم عنده وحاول الطعن في كتاب الله تعالى كما أشار إلى ذلك غير واحد(٢).

وهذا الاختلاف إنما هو أسلوب وطريقة سلكها القرآن الكريم في التعبير حينما أراد التحدث عن أمر ما. يقول الله تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ

---

(١) صحيح مسلم (١٦).

(٢) انظر: القرآن ونقض مطاعن الرهبان، لصلاح عبدالفتاح الخالدي (٣٦٣/١)، دار القلم، دمشق، ط١، (١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧م)، وردّ البهتان عن إعراب آيات القرآن، ليوسف بن خلف العيساوي، (٥٩/١)، دار ابن الجوزي، الدمام، ط١، (١٤٣١هـ – ٢٠١٠م).

وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ [البَقَرَة : ١٧٧].

يبين الله تعالى في هذه الآية الكريمة أن البرّ والخير المرضي عند الله تعالى ليس مجرد الاتجاه إلى المشرق والمغرب في الصلاة، والاختلاف في ذلك، ولكنَّ الخير كل الخير فيمن آمن بالله تعالى إلهًا واحدًا، وآمن بيوم القيامة، وبالملائكة، وبالكتب المنزلة، وبالأنبياء جميعًا، وأنفق من ماله على الرغم من حبه والحرص عليه على ذوي القربى، وعلى الأيتام، والمساكين، وابن السبيل، والسائلين، وفي تحرير الرقاب، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، والذين يوفون بعهدهم إذا عاهدوا، والذين يصبرون على الفقر، والشدة، وعلى المرض، وفي شدة وقت القتال، أولئك هم الصادقون والمتقون(١).

فالآية الكريمة جاءت لتبيّن وجوه البر والخير، وقد توالت عدة معطوفات في قوله سبحانه: "ولكن البرَّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وأتى المال ... وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم والصابرين..."، فالمعطوف عليه هو الاسم الموصول (من) آمن بالله، والمعطوفات الأخرى هي: (والموفون بعدهم، والصابرين)، ولأن الاسم الموصول (من) خبر (لكن)، فهو في محل رفع.

(١) المختصر في تفسير القرآن الكريم، نخبة من العلماء، (٢٧).

وقوله: (الموفون) جاء في سبب رفعها عدة أقوال، منها:

- أنها معطوفة على المضمر في الفعل (آمن)، فيكون المعنى: ولكن البر من آمن منهم بالله واليوم الآخر ... وأقام الصلاة، وآتى الزكاة ووفى بعهده. قال بذلك النحاس[١]، ومكي[٢]، وغيرهما.
- وقيل ارتفعت على المدح، بإضمار: وهم الموفون بعهدهم، فتكون خبرًا مرفوعًا وعلامة رفعه الواو لمبتدأ محذوف تقديره (هم). قال بذلك الزجاج[٣]، والنحاس[٤]، ومكي[٥]، والثعلبي[٦]، والرازي[٧]، وغيرهم.
- وقيل ارتفعت؛ لأنها معطوفة على خبر لكن، وهو (من)، فيكون المعنى: ولكن البِرَّ، أي: ذا البِرَّ المؤمنون والموفون بعهدهم. قال بذلك أيضًا الزجاج[٨]، والنحاس[٩]، ومكي[١٠]، والثعلبي[١١]، والرازي[١٢]، وغيرهم.

---

(١) معاني القرآن (٩١/١).
(٢) مشكل إعراب القرآن (١١٨/١).
(٤) معاني القرآن (٢٤٧/١).
(٥) معاني القرآن (٩١/١).
(٥) مشكل إعراب القرآن (١١٨/١).
(٧) الكشف والبيان (٤١٤).
(٨) مفاتيح الغيب (٢١٨/٥).
(٩) معاني القرآن وإعرابه (٢٤٧/١).
(١٠) معاني القرآن (٩١/١).
(١١) مشكل إعراب القرآن (١١٨/١).
(١٢) الكشف والبيان (٥٢/٢).
(١٣) مفاتيح الغيب (٢١٨/٥).

وجاءت (والصابرين) بعدها منصوبة، فخالفت المعطوفات المرفوعات قبلها. وقيل في نصبها، أقوال، منها[١]:

- أنها نُصبت على المدح، بإضمار (أعني)، أي أعني الصابرين الذين صبروا في السراء والضراء وحين البأس، فهم يستحقون الإشادة بذكرهم؛ لعظم عملهم. قال بذلك من سبق ذكرهم.
- وقيل: نصبت لطول الكلام بينها، وبين المعطوفات قبلها. ومن شأن العرب أنْ تغيّر الإعراب إذا طال الكلام.
- وقيل: نصبت نسقا على قوله ذَوِي الْقُرْبى.

والأجود من الأقوال، وكلها ممكنة، هو نصب (الصابرين) على المدح. نص على ذلك غير واحد، ومن ذلك ما ذكره الزجاج حين ذكر الآية الكريمة:" وقوله . عز وجل .: (وَالصَّابِرِينَ): في نصبها وجهان: أجودهما أن يكون منصوبًا على المدح، والمعنى: أعني الصابرين"[٢].

هذا الأسلوب القرآني المغاير في نظمه للكلام المعتاد إنما جاء لإفادة معنى، فالرفع والنصب على المدح أسلوب يُراد منه الانتباه للمذكور، فهو مخصوص بحكم إعرابي مغاير يحتاج من القارئ والسامع والمتدبر الانتباه، وأن يرعيه سمعه، ويتيقن بعظم هذا الأمر المذكور.

ومن قواعد أصول الفقه:" التابع لا يُفرد بالحكم ما لم يكن مقصودا"[٣] فإذا كان مقصودًا أفرد بالحكم.

(١) الكشف والبيان (٥٢/٢).

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢٤٨/١).

(٣) الوجيز في إيضاح قواعد الفقه الكلية لمحمد صدقي (٣٣٣).

ويجود هذا القول أيضًا قول أبي علي الفارسي حين قال:" إذا ذكرت صفات في معرض المدح أو الذم فالأحسن أن يخالف في إعرابها؛ لأن المقام يقتضي الإطناب، فإذا خولف في الإعراب كان المقصود أكمل؛ لأن المعاني عند الاختلاف تتنوع وتتفنن وعند الإيجاز تكون نوعا واحد"(١).

ويقول الزركشي:" فصل الجمل في مقام المدح والذم أبلغ من جعلها نمطًا واحدًا"(٢).

ومن ذلك قول الشاعر العربي: (المتقارب)

ويَـأْوِي إلـى نِسْـوةٍ عُطَّـلٍ وشُعْثاً مراضيعَ مثلَ السَّعالِي(٣)

فنصب (شُعثًا) وهو معطوف على (عطلٍ) وحقه الجر.

وأما قول الخزنق: (الكامل)

لا يَبعـدَنَّ قـومي الّـذينَ هُـمُ سُـمُّ العُـداةِ وآفـةُ الجُـزرِ
النـازلين بكـلِّ مغْتـركٍ والطيبـون معاقـدَ الأزُرِ
الضـاربون بحومـةٍ نزلـتْ والطـاعنون بـأذرعٍ شُـعرِ(٤)

---

(١) لم أجد هذا القول في كتب الفارسي، وإنما وجدته منقولا عنه في كتاب البرهان في علوم القرآن للزركشي (٤٤٦/٢).

(٢) البرهان في علوم القرآن(٤٤٨/٢).

(٣) البيت لأمية بن أبي عائذ الهذلي في ديوان الهذليين(٢/ ١٤٨)، وهو في وصف صياد، يسعى لتحصيل قوت عياله؛ وهو من شواهد الكتاب (١٩٩/١)، وشرح أبياته (١٤٦/١)، وشرح المفصل:(٢/ ١٨)، والتصريح: (٢/ ١١٧)، والأشموني:(٧٨٢/ ٢/ ٤٠٠)،

(٤) الأبيات في ديوانها (٤٣)، وهو من شواهد الكتاب (١٠٤/١، ٢٤٦، ٢٤٩، ٢٨٨)، وفي شرح أبياته (١٦/٢)، والتصريح بمضمون التوضيح للشيخ خالد الأزهري (١٢٣/٢)، وهمع الهوامع (١١٩/٢)، والأشموني (٦٨،٢١٤/٣).

فليس فيها شاهد على اختلاف معطوف؛ فـ(الطيبون) معطوف على قومي، وهو مرفوع. و(النازلين) صفة نصبت على القطع.

أما في روَايَة يُونس عَن العرَبِ: برفع (النَّازِلُونَ) وَنَصْب (الطَّيِّبِينَ)، فإنها تكونَ نظيرَ هَذه الْآية.

ومثل آية البر، آية أخرى في سورة النساء، يقول سبحانه: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ١٦٢﴾ [النِّسَاء : ١٦٢]

يخبر الله تعالى أن الراسخين في العلم من اليهود يصدقون بما أنزل على نبينا ﷺ من القرآن، ويصدقون بما أنزل من الكتب على من قبله من الرسل كالتوراة والإنجيل، كما أنهم يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويصدقون بالله إلهًا واحدًا لا شريك له، ويصدقون بيوم القيامة، أولئك المتصفون بهذه الصفات سيعطيهم سبحانه ثوابًا عظيمًا(١).

فـ(الراسخون) رُفعت على الابتداء، وعطفت عليها (والمؤمنون) في موضعيها، وكذلك (المؤتون). أما (المقيمين) فخالفت المعطوفات، وقيل فيها أقوالٌ تفسر هذا الاختلاف، والصواب منها هو: أنها منصوبة على المدح والتعظيم، وممن قال بذلك: سيبويه حيث حمل نصبه على المدح، أي: وأعني المقيمين. وقال في كتابه: (بَابُ مَا يَنْتَصِبُ فِي التَّعْظِيمِ وَالْمَدْحِ وَإِنْ شِئْتَ جَعَلْتَهُ صِفَةً فَجَرَى عَلَى الْأَوَّلِ، وَإِنْ شِئْتَ قَطَعْتَهُ فَابْتَدَأْتَهُ)، وقال:(فَلَوْ كَانَ كُلُّهُ رَفْعًا كَانَ جَيِّدًا)، وأنشد: (البسيط)

وكلّ قومٍ أَطَاعُوا أَمرَ مُرشِدِهم إلّا نُمَيرًا أَطَاعَتْ أمْرَ غَاوِيهَا

(١) المختصر في التفسير (١٠٣).

الظّـاعِنِينِ ولمَّـا يَظْعنُـوا أَحَـدًا والقَـائِلونَ لِمَـنْ دَارٌ نُخَلّيهـا[١]

فعطف (القائلون) المرفوع، على (الظاعنين) المنصوب؛ لقصده معنى الذم في المذكورين، والتقدير: وهم القائلون. وكذلك قول الشاعر: (المتقارب)

إلـى المَلِـكِ القَـرْمِ وابْـنِ الهُمَـامِ ولَيْـثِ الكَتِيبَـةِ فـي المُـزْدَحَمْ
وذا الـرَّأْيِ حـين تُغَـمُّ الأمـور بـذات الصَّـلِيلِ وذات اللُّجُـمْ[٢]

فنصب (ذا الرأي) على المدح، وحقه الجر عطفًا على المجرور قبله. فكذلك في الآية الكريمة؛ وبهذا نعلم أنها طريقة عربية في عطف الأسماء الدالة على صفات محامد، على أمثالها، فيجوز في بعض المعطوفات النصب على التخصيص بالمدح، ويجوز الرفع على الاستئناف للاهتمام، كما صنعوا ذلك في النعوت المتتابعة، سواء أكانت بعطف أم بغير عطف.

وبناء على هذا فالقطعُ يكون في النعوت وفي المتعاطفات. يُقطع مع المرفوعات بمنصوب أو مع المنصوبات بمرفوع. ويكون العامل في المقطوع إلى النصب محذوفا، تقديره أمدح، أو أخص ونحوهما، وفي المقطوع إلى الرفع يكون خبرًا لمبتدأ محذوف يقدّر بحسب المقام، وسياق الكلام.

وفي الآية الأولى كان الأمر المقطوع قوله: (والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس)، والصبر نصف الدين، ويحتاجه الإنسان لدينه ودنياه وأمره كله. والمقطوع في الآية الثانية قوله: (والمقيمين الصلاة)، والصلاة هي عمود الدين، ودلالة الإسلام، والركن الثاني من أركانه.

يقول الطبري رحمه الله:" وَالعربُ تفعَلُ ذلكَ فِي صفَةِ الشَّيءِ الواحدِ

(١) البيتان لابن حماط العكلي في الكتاب لسيبويه (٢٤٩/١)، وشرح أبياته (٢١/٢)، والإنصاف للأنباري (٤٨٠/٢)، وشرح الشواهد الشعرية (٣١٤/٣).

(٢) البيتان بلا نسبة في الإنصاف للأنباري (٣٨٤/٢)، وشرح الشواهد الشعرية لحسن شراب (١٨/٣).

وَنَعتهِ إذا تطاولتْ بِمَدحٍ أَو ذمٍ خَالَفوا بين إِعرَابِ أَولِهِ وأوسَطِهِ أَحيَانًا، ثُمَّ رجعوا بِآخِرِه إِلى إعرابِ أَوَّلِهِ، وَربما أَجرَوا إِعرَابَ آخِرِه على إِعرابِ أَوسطِه، وَربما أَجْرَوا ذلكَ على نوعٍ واحدٍ من الْإِعرابِ، وَاسْتَشْهَدُوا لِقولهم ذَلِكَ بِالآيات التي ذكرناها"[1].

وقيل مثل ذلك في لفظة (والصابئون) في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [المَائِدَة : ٦٩]

ولاشكَّ أنَّ هذا من دلائل إعجاز القرآن في بيانه وتبيينه؛ فهو يصرّف القول ويتفنن في عرضه بمقدرة خارقة تفوق قدرة العرب الفصحاء والبلغاء، ولستُ هنا لبيان استيعاب ذلك، وإنما مثال يهدينا ونموذج يكفينا.

٢.الأسلوب الثاني:

عطف الفعل على الاسم المشبه له:

التوافق بين المعطوفات هو الأصل، وهو الحكم العام؛ لأن العطف يقتضي المشاركة، وحرف العطف حرف ضعيف لا يربط بين مختلفي الجنس، فيعطف الاسم على الاسم: رفعًا، ونصبًا وجرًا، ويعطف الفعل على الفعل، بشرط اتحاد الزمان، وإن اختلفا في النوع، رفعًا، ونصبًا، وجرًا.

كما اشترط أهل البيان التناسب بين الجمل المتعاطفة؛ بهدف ظهور الفائدة، ولأجل ذلك منعوا عطف الإنشاء على الخبر، وعكسه[2]. ووافقهم ابن مالك في شرح التسهيل[3].

(١) تفسير الطبري (٦٨٢/١).
(٢) انظر: مغني اللبيب (٦٢٧/١).
(٣)انظر: شرح التسهيل (٢٥٠/٢).

إلا أن القرآن يؤكد جودة عطف الإنشاء على الخبر وعكسه، وتناسبه، وتحقق الفائدة باستعماله، ومن ذلك قول الله تعالى:" ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧﴾ [المَائِـدَة : ٦٧]. فعطف خبرا (والله يعصمك من الناس) على جملة الشرط، وعطف جملة الشرط على الأمر (بلغ ما أنزل إليك). وقوله تعالى: ﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٣﴾ [الصَّـف : ١٣] ، فعطف أمرا (وبشر المؤمنين)، على خبر (وفتح قريب)، وقوله سبحانه: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ ﴾ [البَقَرَة : ٢٨٢] ، فعطف خبرا (ويعلمكم الله) على أمر (واتقوا الله)، وغيرها من الآيات الكريمة. وقد قال بجواز ذلك ابن خروف، والصفار [١].

ومع اشتراطهم التوافق بين المعطوفات، إلا أنه وقع التغاير بين المعطوفات في كتاب الله تعالى، واستعمتله العرب.

فكما أنه يجوز العطف بين الأسماء، وبين الأفعال، كذلك يجوز العطف بين الفعل وبين الاسم المُشبه للفعل في المعنى، والعكس كذلك. وأعني بالاسم المشبه للفعل، هو الاسم المشتق؛ وجاز ذلك؛ لسهولة تأويل المخالف بالموافق؛ فيسهل تأويل الفعل بالاسم، أو تأويل الاسم بالفعل.

نصَّ على ذلك الزجاجي في جمله، وابن مالك في شرح التسهيل[٢].

يقول الزجاجي:" ولا يجوز عطف الاسم على الفعل، ولا الفعل على الاسم إلا في موضع يكون الفعل فيه في موضع الاسم أو الاسم في موضع

(١) انظر: مغني اللبيب لابن هشام (٦٢٧/٢)، والبرهان في علوم القرآن (١٠٣/٤).
(٢) انظر: شرح التسهيل (٣٨٣/٣).

الفعل. فالموضع الذي يكون فيه الاسم في موضع الفعل اسم الفاعل واسم المفعول إذا وقعا في صفة الألف واللام، نحو : (الضارب) و (المضروب)" ثم قال:" والموضع الذي يقع فيه الفعل موقع الاسم أن يقع خبرا لذي خبر، أعني خبرا لمبتدأ، أو لـ(كان) وأخواتها، أو لـ(أن) وأخواتها، أو لـ (ما)، أو حالا لذي حال، أو صفة لموصوف، أو في موضع المفعول الثاني لـ(ظننت)، أو الثالث من باب (أعلمت)" [1].

يقول ابن مالك:

واعْطِفْ عَلَى اسْمٍ شبه فعلٍ فِعْلا وعَكْسًا اسْتَعْمِلْ تَجِدْهُ سَهْلا[2]

ومن أمثلة ذلك، قوله سبحانه:

﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الرُّوم : ٣١]، فقوله سبحانه: (واتقوه) عطف على قوله (منيبين) وهو اسم فاعل يشبه فعله وهو (أنيبوا).

وقوله سبحانه:"﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحَدِيد : ١٨].

فقوله سبحانه:(وأقرضوا) عطف على قوله: (المصدقين والمصدقات) وهو اسم فاعل يشبه فعله، فكأنه قال: إنَّ الذين تصدّقوا وأقرضوا الله.

وجاءت هذه المغايرة بين المعطوفات لحكم عظيمة، منها: أن التعبير باسم الفاعل (منيبين) إشارة إلى أن هذه الصفة صفة ثابتة فيهم، ثم عطف عليها الفعل (واتقوا)؛ ليجعل فعل الأمر هذا متجددًا في نفوسهم فلو تركوه رجعوا إليه، وفي الآية الثانية أعطى الله تعالى هذا الصنف المنفق صفة ثابتة فيه

(١) شرح جمل الزجاجي، لابن عصفور (٢١١/١)

(٢) ألفية ابن مالك، لابن مالك (٤٨/١).

وهي التصدق، فهو متلبس بهذه الصفة دائمًا، ثم عطف عليها الفعل (وأقرضوا)؛ ليصور لنا حدث الإنفاق بالفعل (أقرضوا)، فيكون ماثلًا في النفس. والله أعلم.

وقوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [المُلك : ١٩]. فقوله سبحانه: (ويقبضن) عطف على قوله: (صافات) وهي اسم فاعل مشبه فعله وهو (يصففن).

ولاشك أن صفة صف الجناح للطائر في السماء لها شكلها المهيب الثابت، ثم يعطف عليها الفعل المضارع (ويقبضن)؛ ليصور لنا حدث تكرر القبض بشكل سريع ثم يأتي صف الجناح مرة أخرى، وهكذا.

يقول ابن عاشور رحمه الله:" وأوثر الفعل المضارع الدال على التجدد في (يقبضن)؛ لاستحضار تلك الحالة العجيبة فهن يجددن قبض أجنحتهن في خلال الطيران للاستعانة بقبض الأجنحة على زيادة التحرك عند ما يحسسن بتغلب جاذبية الأرض على حركات الطيران. وجيء في وصف الطير بـ(صافات) بصيغة الاسم؛ لأن الصف هو أكثر أحوالها عند الطيران فناسبه الاسم الدال على الثبات"(١).

وقوله سبحانه: ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾﴾ [العَادِيَات : ٣ - ٤]. فقوله سبحانه (فأثرن) عطف على قوله (فالمغيرات) وهي اسم فاعل يشبه فعله وهو (أغرنَ). يقول الزمخشري:" فإن قلت: علام عطف فَأَثَرْنَ؟ قلت: على الفعل الذي وضع اسم الفاعل موضعه، لأنّ المعنى: واللاتي عدون فأورين، فأغرن فأثرن"(٢).

(١) التحرير والتنوير (٢٩/٢٩).
(٢) الكشاف (٧٨٦/٦).

وهنا أقول: لا شيء في القرآن وُضع عبثًا، حينما يأتي الفعل بعد هذه الأسماء يعطينا تصورًا للحدث في النفس، وكأننا ننظر إليه، فالفعل له هذه الخاصية؛ لأن معناه الحدث. يقول القاسمي:" وحكمة مجيء هذا المعطوف فعلًا عن اسم فاعل، تصوير هذه الأفعال في النفس. فإن التصوير يحصل بإيراد الفعل بعد الاسم لما بينهما من التخالف. وهو أبلغ من التصوير بالأسماء المتناسقة"(١).

كما أننا حين ننظر لسياق الآيات نجد أن أوصاف الخيل التي أتت بصيغة اسم الفاعل أتت مُقسمًا بها، فلمَّا انتهى القسم غاير الأسلوب فأتى بالفعل الذي يثير وصف الحدث في النفس. يقول ابن عاشور رحمه الله:" فأثرن به نقعا عاطفة على وصف (المغيرات)،... وليست عاطفة على صفة مستقلة مثل الصفات الثلاثة التي قبلها؛ لأن إثارة النقع، وتوسط الجمع من آثار الإغارة صبحًا، وليسا مقسمًا بهما أصالة، وإنما القسم بالأوصاف الثلاثة الأولى. فلذلك غير الأسلوب في قوله: (فأثرن به نقعا فوسطن به جمعا) فجيء بهما فعلين ماضيين، ولم يأتيا على نسق الأوصاف قبلهما بصيغة اسم الفاعل؛ للإشارة إلى أن الكلام انتقل من القسم إلى الحكاية عن حصول ما ترتب على تلك الأوصاف الثلاثة ..."(٢).

كما جاء العكس، وهو عطف الاسم المشبه للفعل على الفعل في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٩٥﴾ [الأنعام : ٩٥]. فقوله سبحانه (مخرج) عطف على الفعل (يخرج)؛ وقد جاءت في موضعين آخرين باتفاق الكلمتين (يخرج).

(١) محاسن التأويل (٥٢٨/٩).
(٢)التحرير والتنوير (٤٩٨/٣٠).

كما في سورتي يونس قوله سبحانه: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٣١﴾ [يُونُس : ٣١] ، وكما في سورة الروم، قوله سبحانه: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ١٩﴾ [الرُّوم : ١٩].

هذا الإخراج صنعٌ عجيب من الله تعالى ذي القدرة الكاملة على كل شيء، سبحانه يخرج النبات الحي من الحبة الصلبة التي لا روح فيها، ويخرج ذلك الحيوان المليء بالحياة من ذلك الماء الذي لا حياة فيه، ويعطف على ذلك صنعًا عجيبًا آخر، وهو أنه سبحانه يخرج الميت من الحي كإخراجه البيضة التي لا حياة فيها من الدجاجة.

هذا الخلق العجيب حجة الله على خلقه، وكلاهما خلق؛ لكنه استخدم في الأول الفعل، وفي الثاني الاسم المشبه له وهو اسم الفاعل؛ فاستخدم الجملة الفعلية الدالة على التجدد والتكرار، واستخدم الاسم الدال على الثبات والاستمرار؛ وهذه هي الشمولية في القدرة التي لا يملكها إلا الله تعالى. يقول ابن عاشور رحمه الله:" وقد جيء بجملة: (يخرج الحي من الميت) فعلية؛ للدلالة على أن هذا الفعل يتجدد ويتكرر في كل آن، فهو مراد معلوم وليس على سبيل المصادفة والاتفاق. وجيء في قوله: (ومخرج الميت من الحي) اسمًا؛ للدلالة على الدوام والثبات، فحصل بمجموع ذلك أن كلا الفعلين متجدد وثابت، أي كثير وذاتي، وذلك لأن أحد الإخراجين ليس أولى بالحكم من قرينه"[(١)].

ومما جاء عن العرب بمثل هذا الأسلوب، قول الشاعر: (الطويل)

(١) التحرير والتنوير (٣٨٩/٧).

فَأَلْفَيْتُهُ يَوْمًا يُبِيرُ عَدَوَّهُ ومُجْرِ عَطَاءٍ يَسْتَحِقُّ الْمَعَابِرَا[١]

فعطف الاسم المشبه للفعل (مجر) على الفعل (يُبير).

وقول الآخر: (من الرجز)

يَارِبِّ بَيْضَاءَ مِن العَواهِجْ أمُّ صَبِيٍ قَدْ حَبَاَ أو دَارِجْ[٢]

فعطف الاسم المشبه للفعل (دارج) على الفعل (حبا).

وقول الآخر: (من الرجز)

بَاتَ يُغَشِّيها بِعضبٍ بَاتر يَقصِدُ في أَسْوقِها وجَائرِ[٣]

فعطف الاسم المشبه للفعل (جائر) على الفعل (يقصد).

وقول عمرو بن كلثوم: (الوافر)

وأنَّا الشَّاربونَ المَاءَ صَفْوًاويَشْرَبُ غَيْرُنَا كَدَرًا وطِينًا[٤]

فعطف الفعل (يشرب) على الاسم المشبه للفعل (الشاربون).

وفي كل هذه الشواهد القرآنية والعربية يسهل تأويل الفعل بالاسم، وتأويل الاسم بالفعل. وبهذا ندرك أن هذا التغاير المخالف للقاعدة العامة جاء به القرآن الكريم، وقد ورد على ألسنة العرب الفصحاء. وله فوائده وحكمه البالغة.

---

(١) البيت للنابغة الذبياني في ديوانه (٧١)، وفيه (بحر عطاء) بدلا من (مجر) وحينها لا شاهد فيه، وفي شرح ابن عقيل (٢٤٥/٣) ، وشرح الشواهد الشعرية لمحمد حسن شراب (٤١٥/١) كما في المتن.

(٢) البيت بلا نسبة في شرح الأشموني (٤٠٣/٢) ، والتصريح بمضمون التوضيح (١٥٢/٢)، والبحر المحيط (٣٥٩/٧).

(٣) البيت بلا نسبة في شرح ابن عقيل (٢٤٤/٣) ، وشرح الشواهد الشعرية لمحمد حسن شراب (٤١٥/١)، والأشموني (١٢٠/٣).

(٤)البيت في ديوانه (٩٠) (ونشرب إن وردنا الماء) في رواية آخرى.

٣. الأسلوب الثالث:

الاستثناء بالمشيئة:

جاء في اللسان أن الاستثناء من ثني الشيء ثنيا، إذا ردّ بعضه على بعض، ويُقال: ثنيتُ الشيء أثنيه ثنيا: إذا عطفته ورددته، وثنيتُه عن مراده: إذا صرفته عنه، يقال: حلف فلان يمينا ليس فيها ثُني ولا ثنوى ولا ثنيّة ولا مثنوية ولا استثناء، كله واحد، فالحالف إذا قال: والله لا أفعل كذا وكذا إلا أن يشاء الله غيره، فقد ردَّ ما قاله بمشيئة الله غيره(١).

واستعمل الاستثناء بمعنى قول: (إن شاء الله)، ويسمى الاستثناء بهذا المعنى: الاستثناء بالمشيئة، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾ [القَلَم : ١٨]. أي: لم يقولوا: إن شاء الله.

وهناك استثناء في الإيمان؛ كأن يقول العبد: أنا مؤمن إن شاء الله، وليس المراد من ذلك الشك، وإنما لأنه لا يدري هل استكمل الإيمان أو لا؟

وهناك استثناء في اليمين، كأن يقول الحالف: والله لا أفعل ذلك إن شاء الله، وفي هذا يقول النبي ﷺ:" مَنْ حَلَفَ فَقَالَ: إِنْ شَاءَ اللهُ فَقَدْ اسْتَثْنَى "(٢).

والاستثناء عند النحاة كما عرفه ابن مالك" هو المخرج تحقيقًا أو تقديرًا من مذكور أو متروكٍ بـ(إلاَّ) أو ما بمعناها بشرط الفائدة، فإن كان بعض المستثنى منه حقيقة فمتصل، وإلا فمنفصل مقدر الوقوع بعد "(٣).

والاستثناء بالمشيئة جاء في القرآن الكريم في أربعة عشر موضعًا، وهو ـ

(١) لسان العرب (١٢٤/١٤).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٢٦١)، والإمام أحمد (٤٥٨١). وقال عنه أحمد شاكر: صحيح الإسناد.

(٣) شرح التسهيل (٢٦٤/٢).

لا شك . أسلوب خاص من أساليب القرآن الكريم.

واختلف العلماء في نوع هذا الاستثناء في تلك المواضع، فبعضهم ذهب إلى كونه استثناء متصلًا من عموم الأوقات والأحوال، وبعضهم ذهب إلى كونه استثناء منقطعًا، وبعضهم ذهب إلى كونه يُراد به التأبيد(١).

وفي الاستثناء بالمشيئة تأدب مع الله تعالى وتفويض الأمر إليه سبحانه، يقول سبحانه: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٨٠﴾ [الأَنْعَام : ٨٠].

يحكي الله تعالى لنا محاجة إبراهيم لقومه المشركين في توحيد الله تعالى، "فيخبر سبحانه أن إبراهيم يقول لهم: أتخاصمونني في توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة، وقد وفقني ربي إليه، ولستُ أخاف من أصنامكم، فإنها لا تملك ضُرًّا فتضرني، ولا نفعًا فتنفعني إلا أن يشاء الله تعالى"(٢).

فمن قال إنه استثناء منقطع كابن عطية(٣)، والقرطبي(٤)، جعل المعنى: ولكن أخاف أن يشاء ربي فيلحقني شيء مما يسوء بذنب عملته، وحين النظر لهذا الاستدراك نجد أن فيه استعلاء على قومه بعقيدته التي تأبى الخوف إلا من الله تعالى. يقول ابن عاشور رحمه الله: "وفي هذا الاستدراك زيادة نكاية بقومه؛ إذ كان لا يخاف آلهتهم في حين أنه يخشى ربه المستحق للخشية"(٥).

(١) انظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم لمحمد عبدالخالق عضيمة(٣١٩).
(٢) التفسير المختصر (١٣٧).
(٣) تفسير ابن عطية (٣١٥/٢)
(٤)الجامع لأحكام القرآن (٢٩/٧).
(٥) التحرير والتنوير (٣٢٩/٧).

ومن قال إنه متصل من عموم الأوقات أو الأحوال كالزمخشري[١]، جعل المعنى: إلا أن يشاء الله وقتا أخافه من شركائكم؛ بأن يُسلطوا عليّ؛ فذلك من قدرة الله تعالى ومشيئته وليس من قدرة آلهتكم.

وجوز أبو البقاء الاتصال والانقطاع فقال:" (إلا أن يشاء): يجوز أن يكون استثناء من جنس الأول تقديره: إلا في حال مشيئة ربي؛ أي: لا أخافها في كل حال إلا في هذه الحال. ويجوز أن يكون من غير الأول؛ أي: لكن أخاف أن يشاء ربي خوفي ما أشركتم"[٢].

ومن الآيات التي وقع فيها إشكال عند معظم المفسرين قوله سبحانه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٠٧ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ١٠٨﴾ [هُود : ١٠٦ - ١٠٨].

مما ثبت وتقرر في الكتاب والسنة وإجماع الأمة أن المشركين لا يغفر لهم وأنهم مخلدون في النار بدون استثناء فريق ولا زمان. والأصل في الاستثناء أن يكون إخراج ما بعد إلا من حكم ما قبلها، وظاهر نظم الآية أنهم خالدون فيها إلا وقت أو حال مشيئة الله إزالة خلودهم؛ وبهذا المعنى صار الاستثناء بالمشيئة في هذه الآية موضع إشكال عند معظم المفسرين!

ومما قيل في تأويل هذا الاستثناء لحل هذا الإشكال ما ذكره صاحب الكشاف: "إنه استثناء من الخلود في عذاب النار، ومن الخلود في نعيم الجنة؛ وذلك أن أهل النار لا يخلدون في عذاب النار وحده، بل يعذبون بالزمهرير،

(١) الكشاف (٢/٢٥).

(٢) التبيان في إعراب القرآن (١/٥١٣).

وأنواع أخرى من العذاب، وبما هو أغلظ منها كلها، وهو سخط الله عليهم، وإهانته لهم، وكذلك أهل الجنة، لهم سوى الجنة ما هو أكبر منها وأجلّ موقعا وهو رضوان الله تعالى..."[١]. وإذا نظرنا إلى هذا التأويل لوجدنا فيه بعض الاضطراب، فزمهرير النار من أنواع العذاب في النار، ورضوان الله تعالى هو من نعيم الجنة.

ومما قيل أيضا[٢]: إن الاستثناء يكون من الضمير المستكن في الجار والمجرور، أو في (خالدين)، وبالتالي تكون (ما) واقعة على ما يعقل، ويكون المستثنى من الخلود في النار هم عصاة المؤمنين، ويكون المستثنى من الخلود في الجنة أيضا هم عصاة المؤمنين، أو أصحاب الأعراف، أو فريق آخر شاء الله . تعالى . ألا يخلدوا. وهذا قد يُردّ عليه؛ أنَّ عصاة المؤمنين لا يحسن أن يقال لهم أشقياء؛ كما أنهم وإن حُرموا من دخول الجنة في بادئ الأمر فسيدخلونها بعد حين ثم يخلدون فيها، . والله أعلم . .

وقيل غير ذلك، حتى بلغت أكثر من عشرة أقوال، ذكرها القرطبي في جامعه[٣]، والسمين في درِّه[٤]، قال عنها ابن عاشور: "بعضها لا يتم، وبعضها بعيد"[٥]، وإني أرى . والله أعلم . : أن هذا الاستثناء جاء ليؤكد على أنَّ مشيئة الله تعالى نافذة في كل شيء، ولا يكون شيء في هذا الكون إلا بمشيئته وإرادته سبحانه، فحتى هذا الأمر المقرر في أكثر من موضع في

(١) الكشاف(٢/٢٣٥).
(٢) انظر: الكشاف للزمخشري (٢/٢٣٥)، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٩/١٠٠).
(٣) (٩/١٠٠).
(٤) (٦/٣٩٣).
(٥) التحرير والتنوير (٧/١٠٨)

القرآن، والذي أكَّد الله تعالى عليه بعد ذكر الخلود بقوله (عطاء غير مجذوذ) أي غير منقطع، . يعني فيه صفة الخلود . ، حتى هذا الأمر هو خاضع لمشيئة الله تعالى.

وبناء على ذلك فهذا الأسلوب أسلوب قرآني فيه بيان قدرة الله تعالى، وأنه لا شيء فوقه، ولا مقدّر إلا هو، ولا مشرّع إلا هو سبحانه. وبعدما كتبتُ ما كتبت وجدتُ أن ابن كثير رحمه الله تعالى قد أشار إلى ذلك بقوله:" يعني أن دوامهم ليس أمرا واجبا بذاته، بل موكول إلى مشيئته تعالى"(١).

أو يقال إنه أسلوب قرآني وكلمة تقال في كل الأحوال؛ لأنه لا يكون شيء إلا بتقديره ومشيئته سبحانه، ولهذا أشار ابن عطية بقوله:" هذا على طريق الاستثناء الذي ندب الشارع إلى استعماله في كل كلام كقوله: لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ، فليس يحتاج أن يوصف بمتصل ولا منقطع"(٢). . والله أعلم . .

٤.الأسلوب الرابع:

توحيد الضمير بعد المثنى:

حينما يقال: جاء زيد إلى البيت، وكتب درسه، فإن (هاء) الضمير في (درسه) تعود إلى زيد، وحينما نقول: جاء زيد وعمرو إلى البيت وكتبا درسهما، فإن ضمير المثنى في (درسهما) يعود إلى زيد وعمر، فالمطابقة بين الضمير وبين ما يعود إليه توحيدا أو تثنية هي الأصل.

يقول الرضي: "كل ضمير راجع إلى المعطوف بـ(الواو وحتى) مع

(١). تفسير ابن كثير (٢/٢٣٤)

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية (٣/٢٠٨)

المعطوف عليه يطابقهما مطلقًا نحو: زيد وعمرو جاآني..."[1]، وكما جاء في كتاب الله تعالى قوله سبحانه: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ [النِّسَاء : ١٣٥] وقوله سبحانه: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا﴾ [النِّسَاء : ١] . فالضمير في قوله (جاآني، وبهما، ومنهما) جاء مثنى مطابقًا للمثنى المذكور قبله، وهذا هو الأصل.

إلا أن هناك آيات في كتاب الله تعالى خالفت هذه القاعدة، فجاء الضمير موحدا، وهو عائد على مثنى، ومن ذلك قوله سبحانه:" ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [التَّوْبَة : ٦٢]. فقد جاء الضمير في (يرضوه) موحدا، وهو عائد على (الله تعالى ورسوله ﷺ).

وقوله سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأَنفَال : ٢٤]. فقد جاء الضمير في (دعاكم) موحدا، وهو عائد على (الله تعالى وللرسول ﷺ).

وقوله سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأَنفَال : ٢٠] فقد جاء الضمير في (عنه) موحدا، وهو عائد على (الله تعالى ورسوله ﷺ).

وأحيانا يذكر شيئان، ويوحد الضمير فيعود على أحدهما، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾ [الجُمُعَة : ١١]. فقد جاء الضمير في (إليها) موحدا، وهو عائد على (تجارة).

(١) حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك(١٨٢/٣)

وقوله سبحانه:" ﴿وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ١١٢﴾ [النِّسَاء : ١١٢]. فقد جاء الضمير في (به) موحدا، وهو عائد على (إثما).

وقوله سبحانه: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥﴾ [البَقَرَة : ٤٥]. وغيرها من الآيات للمماثلة. فقد جاء الضمير في (وإنها) موحدا، وهو عائد على (الصلاة).

فلماذا لم يُثنَّ الضمير العائد على اثنين، وهما (الله تعالى، ورسوله) في الموضعين، ولماذا عاد الضمير هنا على واحد من الاثنين في (خطيئة، أو إثما)، و(تجارة، ولهوا)، و(الصبر، والصلاة)؟

هل هو خروج عن القاعدة العربية؟ أو أنه أسلوب قرآني عربي؟

الجواب: هو أسلوب عربي محبب في القرآن الكريم وعند العرب، ومجيء القرآن به فيه دلالة على أن هذا الأسلوب عريق في الفصاحة، معجز في البيان؛ قال عنه ابن فارس: "باب نسبة الفعل إلى أَحد اثنين وهو لهما"[(١)]، ومما جاء عن العرب قول حسَّان ﷺ: (الخفيف)

إنَّ شَرْخَ الشبابِ والشَّعرَ الأسْـ ودَ ما لم يُعاصَ كان جنونا[(٢)]

فقد جاء الضمير في (يُعاص) موحدا، وهو عائد إلى (شرخ الشباب، والشعر الأسود)، وكذلك قول عمرو الباهلي: (الطويل)

رَمَانِي بأمرٍ كنتُ منهُ ووالِدي بَرِيئاً ومِن أجْلِ الطَوِيِّ رَمَانِي[(٣)]

(١) الصاحبي في اللغة لابن فارس (١٦٦/١).

(٢) البيت لحسان بن ثابت في الديوان(٢٣٦/١)، ولسان العرب مادة (ش ، ر، خ).

(٣) البيت لعمرو الباهلي في الكتاب لسيبويه (٧٥/١). وشرح أبياته (٢٤٩/١)، وهمع الهوامع في شرح جمع الجوامع للسيوطي (٤٢٦/١).

فقد جاء الضمير في (بريئا) موحدا، وهو عائد إلى (التاء المتحركة في (كنت)، ووالدي).

وقد أجاب العلماء عن هذا الأسلوب بعدة أجوبة، وهي كالآتي:

فيما يخص الآية الأولى والثانية، فقد قيل: إن الضمير يعود إلى الله تعالى؛ لأن إرضاء الله تعالى هو الأصل، ورضا الرسول ﷺ تابع له، يقول الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ٨٠﴾ [النِّسَاء : ٨٠] ، ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [الفَتْح : ١٠] .فرضا الله تعالى مناط برضا رسوله الكريم، إلا أنه لا يُثنّى مع اسم الله . تعالى . أحد ولو كان رسول الله ﷺ؛ تعظيما له سبحانه.

وفي صحيح مسلم أن خطيباً قام عند النبي ﷺ فقال في خطبته: "من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى". فقال النبي عليه الصلاة والسلام: "بِئْسَ الخَطِيبُ أَنْتَ، قُلْ: وَمَنْ يَعْصِ الله وَرَسُولَهُ"[١]. فكره النبي ﷺ أن يجمع مع الله غيرُه في ضمير واحد؛ وذلك لأنه من غير اللائق، وغير المناسب التعبير بالضمير المثنى العائد على الله ورسوله؛ لأن فيه جمعًا بين الخالق والمخلوق بضمير تثنية واحد، وهذا مخالف لتوحيد الله تعالى.

وممن قال بهذا القول: الأخفش[٢]، والطبري[٣]، ومكي بن أبي طالب[٤]،

(١) صحيح مسلم (٨٧٠).
(٢) معاني القرآن (٨٧/١).
(٣) جامع البيان (١١٩/١٢).
(٤) الهداية إلى بلوغ النهاية(١١٩٨/٢).

والنيسابوري[١]، وأبوحيان[٢]، وغيرهم.

وحين أمعن النظر في إفراد هذا الضمير العائد على الله تعالى، وعلى رسوله في هذه الآية سأجد آيات مشابهة في السورة نفسها، من ذلك قوله سبحانه: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التَّوۡبَة : ٣]، فقال: إن الله برئ من المشركين، ورسوله، ولم يقل إن الله ورسوله بريئان من المشركين، وفي قوله سبحانه: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ٥٩﴾ [التَّوۡبَة : ٥٩]. فقال: سيؤتينا الله من فضله ورسوله، ولم يقل سيؤتينا الله ورسوله من فضلهما. وإنما عُطِف (رسوله) بعد تمام الجملة الأولى. ثم حذف من جملة (ورسوله) ما دل عليه الكلام السابق، فلم يقل: وسيؤتينا رسوله من فضله.

إفراد الضمير في هذه الآيات فيه إشارة إلى عقيدة توحيد الله ـ تعالى ـ وإفراده، فالله ـ تعالى ـ هو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، وليس كمثله شيء. والذي يجمع ويثنى هو من جنس متشابه، فيقال عن عمر وعمر (عمران)، ويقال عن محمد ومحمد (محمدان) وقيل عن عمر وأبي بكر (العمران) تغليبا، وقيل عن الشمس والقمر (القمران) تغليبا. ولا شبه بين الخالق والمخلوق. من أجل هذا قلنا إنه لا يُجمَع ولا يُثنى مع الله ـ تعالى ـ أحد. هذا هو توحيد الله تعالى في أسلوب القرآن، دقة وإحكاما، ومبالغة في تنزيه الله عن المساوي والمثيل والكفء، ونلمس ذلك التوحيد النقي الخالص حتى في الضمير.

وعلى هذا جرى بيان القرآن المعجز. ومنْ أَحْسَنُ منَ اللهِ حَدِيثًا.

---

(١) التفسير البسيط(٢/٤٥٣).

(٢) البحر المحيط(٥/٢٩٩).

وقيل: يكون الضمير عائدا لأحد المذكورين؛ لأنه يُستغنى بذكره عن الآخر؛ لشرف الأول، أو لأسباب بيانية أخرى، فمثلا: إعادة الضمير إلى الله تعالى في قوله سبحانه: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [التَّوْبَة : ٦٢]. وقوله سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأَنفَال : ٢٤]. لأن الله تعالى هو الأصل، والنبي ﷺ تابع له، فمن حصل على رضا الله تعالى فقد حصل على رضا الرسول ﷺ، ومن استجاب لأمر الله تعالى فقد استجاب لأمر الرسول ﷺ. وهكذا

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّـٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾ [الجُمُعَة : ١١] أعاد الضمير للتجارة؛ لأنها الأهم بالنسبة للناس؛ ففيها مورد من موارد الحياة وهو المال، وهو صارف عن الصلاة إذا جاء في حينها. واللهو داخل فيها؛ لكونه شاغلًا عن الصلاة.

وفي قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ [يُونُس : ٥]، عطف القمر على الشمس، ثم أفرد الضمير في قوله (وقدره منازل) ليعود على القمر دون الشمس؛ لأن الشهور تعرف بسير القمر ومنازله، فالشهور في ديننا مبنية على رؤية الأهلة، وقيل أفرد لفظا لكنه يعود إليهما في المعنى؛ فكلا الشمس والقمر مرتبط بعدد السنين والحساب(١).

(١) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية (١٠٥/٣)، ومفاتيح الغيب للرازي(٢٠٩/١٧)، والدر المصون للسمين الحلبي (٦/٥).

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾ [النِّسَاء : ١١٢]. أعاد الضمير إلى الإثم دون الخطيئة؛ لأنه أعظم منها جرمًا؛ فالإثم لا يكون إلا عن عمد، في حين الخطيئة تكون عن غير عمد(١).

وقوله سبحانه: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البَقَرَة : ٤٥]. أعاد الضمير إلى الصلاة؛ لأنها عمود الدين، وثاني أركان الإسلام، ودلالة الإيمان.

وحينما قال النبيﷺ :"عَليكُم بِسُنَّتِي وسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الْمَهدِيِينَ الرَّاشِدينَ، تَمَسَّكُوا بها، وعَضُّوا عَليهَا بالنَّوَاجِذِ وإيَّاكُم ومُحْدَثاتِ الأُمورِ فإنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعةٌ"(٢)، فالأمر بالتمسك والعض على السنتين، سنة الرسول عليه الصلاة والسلام، وسنة الخلفاء الراشدين من بعده، لكنه أفرد الضمير ولم يثنه؛ لأن الأصل سنة النبي عليه الصلاة والسلام، و . لا شك . أنهما سنة واحدة.

وقيل: إن الكلام على وجود جملتين، حذف خبر إحداهما؛ لدلالة الثاني عليه. فيكون التقدير:(والله أحقٌ أن يرضوه ورسوله كذلك)، قال أبو عبيدة:" والعرب تفعل ذلك، إذا أشركوا بين اثنين قصروا فخبّروا عن أحدهما استغناء بذلك وتخفيفا، لمعرفة السامع بأن الآخر قد شاركه ودخل معه في ذلك الخبر "(٣). واستشهدوا بشواهد من العرب، كقول ضابئ البرمجي: (الطويل)

فمنْ يكُ أمْسَى بِالمَدِينةِ رحْلُهُ فإنِّي وقيَّارٌ بها لَغَريبُ(٤)

(١) انظر: تفسير ابن جزي(٢٠٩/١).

(٢) أخرجه أبو داود(٤٦٠٧).

(٣) مجاز القرآن (٢٥٧/١).

(٤) البيت لضابئ البرجمي في الكتاب (٢٣٨/١)، وفي شرح أبياته (٣٦٩/١)، وشرح =

ولم يقل: (لغريبان)، والتقدير: (إني لغريب، وقيار كذلك). ومنه قول قيس بن الخطيم: (المنسرح)

نَحْنُ بِمَا عِنْدَنا وأنتَ بِمَا عِنْدَكَ رَاضٍ والرَّأيُ مُخْتَلِفُ[1]

ولم يقل راضون، والتقدير: (نحن بما عندنا راضون، وأنت بما عندك راض). قال سيبويه: "فوضع في موضع الخبر لفظ الواحد لأنه قد علم أن المخاطب سيستدل به على أن الآخرين في هذه الصفة"[2].

وقد قال بهذا القول سيبويه[3]، وأبو عبيدة[4]، والسمين الحلبي[5]، وابن عاشور[6]، وغيرهم، ولو أمعنا النظر في تلك الآيات لوجدناها قد اتخذت طرقا أربعة، وهي:

١.رجوع الضمير إلى المذكورين جميعا. وذلك مثل قوله سبحانه: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ [النِّسَاء : ١٣٥].

٢. رجوع الضمير إلى المذكور أولا، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَـٰرَةً

=

الأشموني (٣١٤/١)، والتصريح (٢٢٨/١)، وهمع الهوامع (١٤٤/٢)، وشرح الشواهد الشعرية في أمات الكتب لمحمد حسن شراب(١٤٩/١).

(١) البيت لقيس بن الخطيم، أو عمرو بن امرئ القيس في الكتاب (٧٥/١)، وفي شرح أبياته (٢٧٩،٥٩٢/١)، وفي شرح الأشموني لألفية ابن مالك(٣٥/٣)، وهمع الهوامع (١٠٩/٢).

(٢) الكتاب (٧٦/١).

(٣) السابق.

(٤) مجاز القرآن (٢٥٧/١).

(٥) الدر المصون (٧٥/٦).

(٦)التحرير والتنوير(٢٤٥/١٠).

أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًاۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾ [الجُمُعَة : ١١]

٣. رجوع الضمير إلى المذكور الثاني، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البَقَرَة : ٤٥].

٤. أن يُذكر شيئان، ثم يفرد الضمير العائد إليهما، مع إرادة الجميع، وهذا الأسلوب الذي أشرنا إليه. كقوله سبحانه: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [التَّوْبَة : ٦٢].

ومن المعروف أن من دلائل إعجاز القرآن، ميله إلى الإيجاز، واختيار معان وأساليب محدودة الألفاظ، كثيرة المعاني، وقد قالت العرب: البلاغة الإيجاز، وفي أسلوب إفراد الضمير وهو عائد إلى اثنين إيجاز معروف عن العرب، عززه كون المعنى معروفا وواضحا، وارتفاعه عن اللبس أو الريب، أو الشبهة.

المبحث الثاني: الأساليب اللغوية:

الأسلوب الأول: التعبير عن التعظيم بقول: (لا تسأل عن كذا).

للعرب طرق عدة تستخدمها للتعظيم من شأنها، أو شأن مَن تخاطبُه، أو شيء تتحدثُ عنه، ومن ذلك: قول السادة أو الملوك أو علية القوم: (نحن فعلنا، نحن أمرنا)، لأن من سنن العرب مخاطبتها الفرد الواحد بلفظ الجمع؛ تعظيما له.

كذلك من طرقها للتعظيم استخدامها للأساليب الإنشائية، كالأمر، والنهي، والاستفهام من أجل التعظيم، فأحيانا تستفهم عن الشيء؛ تعظيما له، أو تنهى عن شيء، كأن تقول: (لا تسأل عن كذا) تريد تعظيمه.

فهذا أحد الشعراء يقول:

لا تَسْأَلِي كيفَ حَالي بَعْدَ فُرْقَتِكُم فانْظُرِي وأَجِلِّي طَرْفَ مُمْتَحِنِ[1]

فهو ينهى أحبابه أن يسألوه عن حاله بعد أن فارقهم؛ لأن حاله عصيٌ عن الوصف، فهو في حالة يُرثى لها من الحزن والألم والكرب، واستخدم هذا الأسلوب ليبين للمخاطب عظمة ما يمرُّ به من حزن.

وقد ورد مثل هذا الأسلوب في كتاب الله تعالى العزير، في قوله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ١١٩﴾ [البَقَرَة: ١١٩]. جاء في السبعة أن " نافعًا قَرَأَ وَحده (ولا تَسأَلْ) مفتوحة التاء، مجزومة اللام، وقرأ الباقون: (ولا تُسألُ) مضمومة التاء، مرفوعة اللام"[2].

وفي كلتا القراءتين معنى تفسيريٌّ يُعدُّ من ثوابت المعاني في ديننا، فعلى

(١) ورد البيت بلا نسبة في الموشَّى أو الظرف والظرفاء، لمحمد بن أحمد بن إسحاق بن يحيى، أبو الطيب، المعروف بالوشاء، (٢٢٨/١).

(٢) السبعة في القراءات، لابن مجاهد (١٦٩/١).

قراءة الرفع يكون المعنى: لن تُسأل أيها النبي عن أهل النار؛ لأن مهمتك التبشير والإنذار، يقول أهل التفسير عن معنى هذه القراءة:" أيها النبي إنا أرسلناك بالدين الحق الذي لا مرية فيه؛ لتبشر المؤمنين بالجنة، وتنذر الكافرين بالنار، ولن يسألك الله تعالى عن الذين لم يؤمنوا بك من أصحاب الجحيم"(١).

أما على قراءة نافع بالجزم، فيمكن أن يكون المقصود معنيين، أولهما: نهي من الله تعالى لنبيه أن يَسأل عن أصحاب الجحيم، وعلى المعنى الآخر يكون المقصود هو التعظيم من الشيء المنهي عنه، أي لا تسأل عن عذابهم فقد بلغوا غاية العذاب التي ليس بعدها غاية. وممن قال بذلك، الأزهري، وابن عاشور، يقول الأزهري رحمه الله:" (وَلَا تَسْأَلْ) بالجزم، فله معنيان: أحدهما: أن الله أمره بترك المسألة عنهم، والآخر: أن في النهي تفخيما مما أعدَّ الله لهم من العقاب، كما يقول لك القائل الذي يعلم أنك تحب أن يكون من تسأله عنه في حالٍ جميلة أو قبيحة فيقول: لا تَسألْ عن فلان"(٢).

ويقول ابن عاشور رحمه الله:" أو هو كناية عن فظاعة أحوال المشركين والكافرين، حتى إن المتفكر في مصير حالهم يُنهى عن الاشتغال بذلك؛ لأنها أحوالٌ لا يحيطُ بها الوصفُ ولا يبلغُ إلى كنهها العقلُ في فظاعتها وشناعتِها، وذلك أن النهي عن السؤال يرد لمعنى تعظيم أمر المسئول عنه"(٣).

ومن ذلك قول السيدة عائشة رضي الله عنها حينما سئلت عن قيام النبي ﷺ لليل، فقالت: "يصلي أربعا فلا تسألْ عن حسنهنَّ وطولهنَّ، ثم يصلي أربعا فلا تسألْ عن حسنهنَّ وطولهنَّ، ثم يصلي ثلاثا. قالت عائشة رضي الله

(١) المختصر في التفسير (١٨).
(٢) معاني القراءات للأزهري (١/١٧٠).
(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور (١/٦٩٢).

عنها، فقلتُ: يا رسول الله:" أتنام قبل أن توتر؟ قال: يا عائشة إنَّ عيني تنام، ولا ينام قلبي"[١]. فالمعنى أن صلاته عليه الصلاة والسلام بلغت من حسن الخشوع والطمأنينة، وجودة القراءة، وطول القيام والركوع والسجود مبلغًا عظيمًا، لا يمكن وصفه، ولذلك مهما وصفت تلك الصلاة فلن تعطيها حقها من الحسن والكمال، لذلك لا تسأل عنها.

وسار على ذلك الأدباء والشعراء المحدثون في استخدام هذا الأسلوب الجميل للتعبير عن عظمة وضخامة ما يتحدثون عنه، فهذا إيليا أبو ماضي يقول:

لا تَسْأَلُوني اليومَ عنْ قِيثَارتي قِيثَارتي خَشَبٌ بلا أنْغَام[٢]

هو يتحدث عن آلامه وأحزانه شأنه شأن بقية شعراء المهجر، الذين قاسوا ألم الغربة بكل معانيها، وسيطرت مشاعر الحزن على شعرهم، فهو يقول لا تسألوا عني وعن شعري وكلامي، فلمْ أعد أملك ذلك الصخب، وذلك النشاط. أصبحتُ جسدا دون روح، فما أصابهم من جراء الغربة شيء عظيم لا يَملكُ وصفه.

وهذا الشاعر عبدالرحمن العشماوي[٣] يقول:

لا تَسْأَلِي عن ضِيقِ صَدْرِيأنا مُغْرَمٌ بِخَلاصِ أَسْرِي[٤]

وهنا العشماوي يتحدث مع نفسه في ديوانه (صراع مع النفس)، فيخبر

(١) صحيح النسائي (١٦٩٦).

(٢) مجلة الرسالة، أحمد الزيات، بين المدّ والجزر، (٢٨/٥١٩).

(٣) شاعر سعودي معاصر، اشتهر بشعره الإسلامي، وأستاذ جامعي، صدر له أكثر من عشرين ديوانا. انظر: (قاموس الأدب والأدباء في المملكة العربية السعودية، (١١٢٠/٢).

(٤) البيت في ديوانه صراع مع النفس (٢٤).

أنها تنتصر عليه تارة، وينتصر هو عليها تارة أخرى، يخبرها بمعاناته معها حتى يجعلها تستقيم على الحق، فيقول لها لا تسألي عن معاناتي بسبب مجاهدتي معك، معاناة تتحول إلى ضيق في الصدر لا يمكن وصفه، فينهى عن السؤال؛ لتعذر الإجابة.

وهذا زكي مبارك[١] في مقدمته لكتاب عبقرية الشريف الرضي وبيان ما صنع فيه هذا الكتاب، يقول:" لا تسألوني كيف ظلمت نفسي فأعددت هذه المحاضرات ... لا تسألوني كيف ظلمت نفسي فأنفقت من العافية ما أنفقت؟"[(٢)].

وهو هنا يريد أيضًا أن يعظم من الجهد الذي بذله في هذا الكتاب، هذ الجهد الذي ظلم بسببه نفسه، فأتعبها وأجهدها وكلفها فوق ما تطيق، جهد لا يمكنه وصفه؛ ولذلك هو ينهى عن سؤاله إياه.

ولقد رأيتُ أنه يُلجأ إلى هذا الأسلوب وأمثاله إذا أحس الإنسان بعجز لغته عن وصف حقيقة الشيء، فكلمات اللغة لن توصلك إلى عظمة هذا الأمر، حتى ترى حقيقته بعينك.

يقول النبي ﷺ يقول الله تعالى:" أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ:" اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السَّجْدَة : ١٧] [(٣)].

فإضافة إلى ما ذكر في القرآن الكريم، وما ذُكر في السنة النبوية عن

(١) محمد زكي عبدالسلام مبارك، أديب وشاعر وأكاديمي مصري، حصل على ثلاث درجات دكتوراه متتالية، فلقبه بعضهم بالدكاترة زكي مبارك، ألف أكثر من أربعين كتابا، توفي عام ١٩٥٢م. انظر (ويكبيديا).

(٢) مجلة الرسالة، أحمد الزيات، (٢٣/٢٥٠)

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٧٩).

نعيم أهل الجنة، إلا أن هناك نعيما لا توصله الكلمات، فجاءت عبارات توحي بالعظمة، ما لا عينٌ رأت، ولا أُذُنٌ سمعتْ، ولا خطر على قلب بشر، وجاء التعبير القرآني بقوله:" فلا تعلم نفسٌ ما أُخفي لهم من قرة أعين" لا تعلم مهما وُصف لها، فأوُثر استخدام هذا الأسلوب الذي يبين، ويدل، ويوحي بعظمة هذا النعيم.

فاستخدام العرب لا تسأل عن كذا أسلوب بديع مبتكر له دلالته على المقصود. والسكوت عن البيان أعظم من البيان.

٢ .الأسلوب الثاني: التعبير عن العمل بالطائر:

يقول ربنا سبحانه: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الإسْرَاء : ١٣]

جاء التعبير عن العمل بالطائر في هذه الآية الكريمة، وفيها يخبر سبحانه أن كل إنسان سيكون عمله ملازما له، ولا ينفك عنه؛ حتى يحاسب عليه، وسوف يلقاه يوم القيامة مكتوبا في كتاب سيأخذه بإحدى يديه(١).

ومن قال بأن المقصود بالطائر هو العمل في هذه الآية الكريمة هم جُلُّ المفسرين، وأهلُ اللغة، قدماء ومحدثون، ومن ذلك ابن عباس(٢)، ومجاهد(٣)، والسدي(٤)، والفراء(٥)، والطبري(٦)، وابن قتيبة(٧)، والبغوي(٨)،

(١) انظر: المختصر في التفسير (٢٨٣).

(٢) انظر: التَّفْسِيرُ البَسِيْط، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي (٢٧٥/١٣).

(٣) السابق.

(٤) السابق.

(٥) معاني القرآن لأبي زكريا يحيى الفراء، (١١٨/٢).)

(٦) جامع البيان للطبري (٥١/١٥).

(٧) غريب القرآن لابن قتيبة لدينوري (٢٥٢/١).

(٨) معالم التنزيل للبغوي (٨٢/٥).

وابن عطية[١]، وأبو حيان[٢] وغيرهم. ويؤيد هذا المعنى ما جاء في قراءة مجاهد مجاهد والحسن وأبي رجاء" ألزمناه طيره"[٣]، أي: عمله.

وسبب التعبير عن عمل الإنسان من خير وشر بالطائر، إنما هو على مذهب العرب وتعارفهم على ذلك، فهم يستخدمون ذلك في كلامهم، ومن ذلك قولهم:" جرى طائرُه بكذا من الخير، وجرى له الطائرُ بكذا من الشر؛ على طريق الفأل والطِّيرة"[٤]، وفي ذلك جاء عن حسان بن ثابت رضي الله عنه قوله: (الطويل)

ذَرِينِي وعِلْمِي بِالْأُمُورِ وسِيرَتِي فَمَا طَائِرِي فيها عَلَيْكِ بأَخْيُلا[٥]

والمعنى أنه لم يكن رأيي يوما بمشؤوم.

والعرب تستخدم الطير فتتفاءل به تارة، وتتشاءم به تارة أخرى؛ فهذه عادتهم، وقد ورد ذلك في كثير من أشعارهم، وهو أمر قد أبطله الإسلام، قال أبو زيد: "فقولهم: سألت الطير، وقلت للطير: إنما هو زجرتها، وقولهم: خبرتني الظباء والطير بكذا: إنما هو وقع زجري عليها على كذا وكذا من خير وشرّ "[٦]، ويقوّى ذلك قول الكميت: (الطويل)

(١) المحرر الوجيز لابن عطية (٣١/٩).

(٢) البحر المحيط لأبي حيان(٢١/٧).

(٣) السابق.

(٤) التفسير البسيط للواحدي (٢٧٥/١٣)

(٥) البيت في ديوان حسان (٢٠٦) برواية: (وشيمتي) بدل (وسيرتي)، (ويومًا) بدل (فيها)، واللسان مادة (خ ، ي ، ل)، وأوضح المسالك (١٢٠/٤)، والتصريح (٢١٤/٢)، والأشموني (٢٣٧/٢). و(الأخيل): طائر يُتشاءَم به، وهو ما يسمونه الشّقِرَّاق، تقول العرب: أشأَم من أخْيَل.

(٦) الحجة لأبي علي الفارسي (٨٥/٥).

ولَا أَنَا مِمَّنْ يَزْجُرُ[١] الطَّيْرَ هَمُّهُ أَصَاحَ غُرَابٌ أَمْ تَعَرَّضَ ثَعْلَبُ[٢]

ومذهبهم في الزجر معروف.

فجاء الخطاب القرآني بما يستعملونه في كثير كلامهم، وفسر أبو عبيدة في مجاز القرآن الطائر بالحظ[٣]، وهو يعني بهذا والله أعلم أن هذا العمل الذي سيجده العبد يوم القيامة مكتوبا في كتابه هو حظه من الخير والشر الذي كتبه الله له. قال بهذا المعنى كذلك ابن قتيبة[٤].

ومن هذا المعنى قوله سبحانه في سورة الأعراف:" ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [الأَعْرَاف : ١٣١]. فمعنى (طائرهم) هنا بمعنى حظهم، وما يصيبهم. يقول المفسرون: " وما يصيبهم من خير وشر إنما هو كله بتقدير من الله سبحانه، وليس لهم ولا لموسى عليه السلام شأن فيه إلا ما كان من دعاء موسى عليهم"[٥].

ومن ذلك قوله سبحانه في سورة (يس): ﴿ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْۚ أَئِن ذُكِّرْتُمۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [يس : ١٨-١٩]. فعبّر هنا عن الطائر بالمعنى الذي يستخدمونه وهو التشاؤم، حيث ذكروا لرسل الله أنهم تشاءموا بهم، وأنهم بؤس عليهم، وهددوهم بالرمي بالحجارة لو أنهم ما كفوا عن دعوتهم، فردَّ الله سبحانه

(١) والزجر للطير هو: التيمن والتشاؤم بها والتفاؤل بطيرانها كالسانح والبارح، وقال الليث: الزَّجرُ: أن يَزْجُرَ طائرًا أو ظَبْيًا سانِحًا أو بارحًا فيتطيَّر منه. انظر مادة (ز، ج ، ر) في اللسان.

(٢) ديوان الكميت بن زيد (٥١٣).

(٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى التيمى البصري (٣٧٢/١).

(٤) انظر: غريب القرآن لابن قتيبة (٢٥٢/١)

(٥) المختصر في التفسير (١٦٦).

عليهم بأن شؤمكم ملازم لكم بسبب كفركم بالله وترككم اتباع رسله[١].

ولأن عمل الإنسان ملازمٌ له، وسيكون الفيصل بعد رحمة الله تعالى في تحديد مآله ومصيره، عبر الله تعالى عن تلك الملازمة بالعنق، فهو ملازم لعنقه، والعرب تقول لكل ما لزم الإنسان: " قد لزم عنقه، وهو لازم صليف عنُقه"[٢].

وخُص العنق؛ لأنه موضع يظهر فيه الجمال والقبح، فإن كان عملا صالحا زان به عنقه، وإن كان غير ذلك فشانه عمله. يقول الطبري:" لأن العنق هو موضع السمات، وموضع القلائد والأطوقة، وغير ذلك مما يزين أو يشين، فجرى كلام العرب بنسبة الأشياء اللازمة بني آدم وغيرهم"[٣]، ويقول أبو حيان:" وخص العنق؛ لأنه محل الزينة والشين، فإن كان خيرا زانه كما يزين الطوق والحلي، وإن كان شرا شانه كالغل في الرقبة"[٤].

وقال الحسن: "يا ابن آدم، بسطتُ لك صحيفة، إذا بُعثتَ قُلدتَها في عنقك"[٥]. وكأن هذا العمل طوق في عنقك لزمك ولزمته ولا ينفك عنك. يقول أبو علي الفارسي:" وهذا مثل قولهم: طوقتك كذا، وقلّدتك كذا، أي صرفته نحوك، وألزمته إياك"[٦].

وبهذا نجد أن هذا التعبير القرآني جاء على طريقة العرب في كلامها، وأفاد دلالات لم تكن لتأتي لولا وجود هذا التلازم بين العمل والطائر، وبين العمل والعنق.

---

(١) انظر: السابق(٤٤١).

(٢) غريب القرآن لابن قتيبة (٢٥٢/١). والصليف: عرض العنق. انظر: القاموس للفيروزآبادى، مادة (ص ، ل ، ف).

(٣) تفسير الطبري (٣٩٩/١٧).

(٤) البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (٢١/٧).

(٥) البحر المحيط (٢١/٧).

(٦) الحجة لأبي علي الفارسي(٨٥/٥).

الخاتمة:

الحمدلله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلتُ إلى نهاية البحث، واستنادًا إليه، فقد تبيّنت لي نتائج عدة، أبرزها:

١ـ خروج أسلوب القرآن الكريم في بعض مواضعه عن التجانس في باب المعطوفات من التفنن الفائق الخارق الذي تنقطع في حلبته أنفاس الفصحاء والبلغاء، والقاطع للملل والسأم.

٢ـ النصب أو الرفع على المدح أو التعظيم من أساليب القرآن التي تكلم بها العرب، وقد جاء في القرآن في ثلاثة مواضع، أولها في شأن الصابرين، وثانيها في شأن المقيمي الصلاة، وثالثها في شأن الصابئين، فنصف الدين الصبر، وعمود الدين الصلاة، والخير كل الخير في الإسلام.

٣ـ الاستثناء بالمشيئة من مبتكرات القرآن، وفي بعض مواضعه المذكورة في هذا البحث لا يحتاج هذا الاستثناء إلى أن يوصف بمتصل ولا منقطع، وإنما هو الأدب مع الله تعالى، وإشارة إلى أنه لا يكون شيء إلا بتقديره سبحانه ومشيئته.

٤ـ توحيد الضمير بعد المثنى فيما يخص الله تعالى ورسوله جاء في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع؛ تحقيقا لعقيدة توحيد الله تعالى وإفراده، فلا يثنى مع الله ـ تعالى ـ أحد، ولو كان محمدًا بن عبدالله ﷺ.

٥ـ توحيد الضمير بعد المثنى في بقية المواضع المذكورة، إنما يعود لواحد منهما، إما الأول، وإما الثاني، ويعود رجوع الضمير إليه إما لأهميته، أو لشرفه، أو لأنه يشملهما معًا.

٦ـ مسألة الاستثناء بالمشيئة، ومسألة توحيد الضمير بعد المثنى فيهما دلالة هامة، وهي أن من حكم بعض قواعد اللغة العربية، التأدب مع الله تعالى

وتعظيمه.

٧ـ اجتماع آيات توحيد الضمير بعد المثنى فيما يخص الله تعالى في سورة التوبة، والأنفال، فيه إشارة إلى أن تعظيم الله . تعالى . ، وتعظيم أوامره من دلائل الإيمان، وترك تعظيمه سبحانه وترك الأدب معه من دلائل النفاق، وهذا الأخير هو موضوع سورة التوبة. . والله أعلم . .

٨ـ أسلوب (لا تسأل عن كذا) ورد مرة واحدة في القرآن الكريم في قراءة نافع وحده، في شأن أصحاب الجحيم، وما أعده الله تعالى لهم من العذاب، وهو أسلوب عربي بديع أبان عن المراد أيما إبانة، والسكوت عن البيان أعظم من البيان.

٩ـ عبَّر القرآن الكريم عن العمل بالطائر، وهو أسلوب عربي؛ دلت عليه أشعارهم، فقد كانوا يتعلمون زجر الطير ليتنبؤوا عن أقدارهم وحظوظهم الحسنة أو السيئة، وجاء القرآن فعبر عنه بالعمل؛ لقوة الرابط بينهما.

ومما أوصي به:

١. أوصي الباحثين واللغويين ببذل المزيد من التدبر في لغة كتاب الله تعالى، فمازال فيها أسرار تثري لغتنا العربية.

٢. في كتب علوم القرآن مباحث لغوية ونحوية وبلاغية جديرة بالدراسة والبحث.

المراجع:

ارتشاف الضرب من لسان العرب، لأبي حيان، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف الأندلسي. تحقيق ودراسة: محمد، رجب عثمان. مراجعة: عبد التواب، رمضان، ط١، مكتبة الخانجي ـ القاهرة (١٤١٨هـ . ١٩٩٨م).

ألفية ابن مالك، لمحمد بن عبد الله، ابن مالك الطائي الجياني، أبو عبد الله، (د . ط)، دار التعاون، (د ـ ت).

الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين: البصريين والكوفيين، لعبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري، أبو البركات، كمال الدين الأنباري، المكتبة العصرية، ط١، (١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م).

أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، لابن هشام، أبي محمد جمال الدين عبدالله بن يوسف بن أحمد المصري الأنصاري، تح: يوسف الشيخ محمد البقاعي، (د . ط)، دار الطلائع. القاهرة، (٢٠٠٤م).

البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي، تح: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، (د-ت)، ١٤٢٠هـ

البرهان في علوم القرآن، لأبي عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١،، (١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي.

التبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري، تح: علي محمد البجاوي، عيسى البابي الحلبي، (د -ت).

تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، المعروف بالتحرير والتنوير، لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، (د . ط)، ١٩٨٤هـ.

التسهيل لعلوم التنزيل، لأبي القاسم، محمد بن أحمد ابن جزي الكلبي، تح: عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط١، (١٤١٦هـ).

التصريح بمضمون التوضيح، لخالد بن عبدالله بن أبي بكر بن محمد الجرجاوي الأزهري. تح: عيون السود، محمد باسل، (د . ط)، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان. (١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م).

التَّفْسِيرُ البَسِيْط، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي، تح: أصل تحقيقه في (١٥) رسالة دكتوراة بجامعة الإمام محمد بن سعود، عمادة البحث العلمي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط١،(١٤٣٠هـ).

تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، تح: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، (١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م).

جامع البيان في تأويل القرآن، لمحمد بن جرير أبو جعفر الطبري، تح: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، (١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م)

الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، تح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، (١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م).

حاشية الصبان على شرح الأشمونى لألفية ابن مالك، لأبي العرفان محمد بن علي الصبان الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، (١٤١٧ هـ -١٩٩٧م).

الحجة للقراء السبعة، للحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسيّ الأصل، أبو علي، تح: بدر الدين قهوجي، بشير جويجابي، راجعه ودققه: عبد العزيز رباح، أحمد يوسف الدقاق، دار المأمون للتراث، دمشق- بيروت، ط٢، (١٤١٣هـ - ١٩٩٣م).

الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، لأبي العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي، تح: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، (د . ت).

دراسات لأسلوب القرآن الكريم، لمحمد عبدالخالق عضيمة، دار الحديث، القاهرة، ط١، (١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م).

ديوان حسان بن ثابت، تح: وليد عرفات، دار صادر، بيروت، (٢٠٠٦م). (د . ط).

ديوان الخرنق بنت بدر بن هفان أخت طرفة بن العبد، رواية أبي عمرو بن العلاء، شرحه وحققه: يسري عبدالغني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، (١١٤١٠هـ . ١٩٩٠م).

ديوان صراع مع النفس، عبدالرحمن بن صالح العشماوي، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، (٢٠٠٢م).

ديوان عمرو بن كلثوم، جمع: إميل يعقوب، دار الكتاب العربي، ط٢، (١٤١٦هـ -١٩٩٦م).

ديوان الكميت بن زيد، تح: محمد نبيل طريفي، دار صادر، بيروت، ط١، (٢٠٠٠م).

ديوان النابغة الذبياني، تح: محمد أبي الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط٢، القاهرة، (د . ت).

ردّ البهتان عن إعراب آيات القرآن، ليوسف بن خلف العيساوي، دار ابن الجوزي، الدمام، ط١، (١٤٣١هـ - ٢٠١٠م).

السبعة في القراءات، لأحمد بن موسى بن العباس التميمي، أبو بكر بن مجاهد البغدادي، تح: شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط٢، (١٤٠٠هـ).

شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، لابن عقيل ، عبد الله بن عبد الرحمن العقيلي الهمداني المصري، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار التراث، القاهرة، دار مصر للطباعة، سعيد جودة السحار، ط٢٠، (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م).

شرح أبيات سيبويه، ليوسف بن أبي سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي، تح: محمد علي الريح هاشم، راجعه: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، دار الفكر، القاهرة، مصر(١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م)

شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، لعلي بن محمد بن عيسى، أبو الحسن الأُشْمُوني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١،(١٤١٩هـ، ١٩٩٨م).

شرح تسهيل الفوائد لمحمد بن عبدالله بن مالك الطائي الجياني، تح : عبد الرحمن السيد، والدكتور: محمد بدوي المختون، هجر، ط١، (١٤١٠هـ -١٩٩٠م).

شرح جمل الزجاجي، لأبي الحسن علي بن مؤمن ابن عصفور الإشبيلي، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه: فواز الشعار، إشراف: إميل يعقوب، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان (١٤١٩هـ . ١٩٩٨م).

شرح كتاب سيبويه، للسيرافي، أبي سيعيد الحسن بن عبدالله المرزبان. تح: مهدلي، أحمد حسن، وعلي، سيد علي، دار الكتب العلمية ـ بيروت. ط١، (٢٠٠٨م).

الشواهد الشعرية في أمات الكتب النحوية، لشُرَّاب، محمد بن محمد حسن، مؤسسة الرسالة، بيروت ـ لبنان، ط١، (١٤٢٧ هـ-٢٠٠٧ م).

شرح المفصل لأبي البقاء يعيش بن علي بن يعيش ابن أبي السرايا، قدَّم له ووضع حواشيه: الدكتور: إميل يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١(١٤٢٢هـ .٢٠١٠م).

شرح الملوكي في التصريف، لابن يعيش، أبي البقاء يعيش بن علي ابن أبي السرايا. تح: المحرصاوي، محمد حسين، دار الكتب والوثائق القومية، ط٢، مصر ـ القاهرة. (١٤٣٥هـ -٢٠١٣م).

الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، لأحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، محمد علي بيضون، ط١، (١٤١٨هـ-١٩٩٧م).

صحيح أبي داود، لأبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني، مؤسسة غراس للنشر والتوزيع، الكويت، ط١، (١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م).

الظرف والظرفاء، لمحمد بن أحمد بن إسحاق بن يحيى، أبو الطيب، المعروف بالوشاء، تح: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، مصر، مطبعة الاعتماد، ط٢، (١٣٧١هـ - ١٩٥٣م).

غريب القرآن لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تح: أحمد صقر، دار الكتب العلمية، (١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م).

قاموس الأدب والأدباء في المملكة العربية السعودية، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، ط١، (١٤٣٥هـ).

القاموس المحيط للفيروزآبادى، تح: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط٨، (١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م).

القرآن ونقض مطاعن الرهبان، لصلاح عبدالفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط١، (١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م).

الكتاب، سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر، تح: هارون، عبد السلام، مكتبة الخانجي ـ القاهرة. ط٣، (١٤٠٨هـ -١٩٨٨م).

الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، (١٤٠٧هـ).

الكشف والبيان عن تفسير القرآن، لأحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق، تح: أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، (بيروت، لبنان)، ط١، (١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م)

الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، قابله على نسخه الخطية، ووضع فهارسه: عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، (١٤١٣هـ. ١٩٩٢م).

لسان العرب، لابن منظور، جمال الدين أبي الفضل محمد بن مكرم المصري الأنصاري. حققه وعلَّق عليه ووضع حواشيه: حيدر، عامر أحمد. وراجعه: إبراهيم، عبد المنعم خليل. ١٤٢٤هـ . ٢٠٠٣م، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، لبنان ـ بيروت.

مجاز القرآن، لأبي عبيدة معمر بن المثنى التيمى، تح: محمد فواد سزگين، مكتبة الخانجى، القاهرة، (د –ت)، ١٣٨١هـ.

محاسن التأويل، لمحمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، (١٤١٨هـ).

المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تح: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، (١٤٢٢هـ).

المختصر في تفسير القرآن الكريم، نخبة من العلماء، (٢٧)، دار المختصر للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ط٦، ١٤٤١هـ.

مسند الإمام أحمد بن حنبل، لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، تح: أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، ط١، (١٤١٦هـ – ١٩٩٥م)

المسند الصحيح، لمسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د –ت).

مشكل إعراب القرآن، لأبي محمد مكي بن أبي طالب، تح: حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، (١٤٠٥هـ).

معاني القراءات، لمحمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، مركز البحوث في كلية الآداب، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، ط١، (١٤١٢هـ – ١٩٩١م).

معاني القرآن وإعرابه، لإبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج، تح: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط١،(١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م).

معاني القرآن، لأبي جعفر أحمد بن محمد النحاس، تح: محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط١، ١٤٠٩هـ.

معاني القرآن لأبي زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي، تح: أحمد يوسف النجاتي، محمد علي النجار، عبد الفتاح إسماعيل الشلبي، دار الكتب المصرية للتأليف والترجمة، مصر، ط١، (د . ت).

معاني القرآن لسعيد بن مسعدة الأخفش المجاشعي بالولاء، تح: هدى قراعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١(١٤١١هـ –١٩٩١م).

مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام، أبي محمد جمال الدين عبدالله بن يوسف بن أحمد المصري، ط١، دار السلام ـ القاهرة. (١٤٢٦هـ . ٢٠٠٥م).

مفاتيح الغيب التفسير الكبير، لأبي عبد الله محمد بن عمر التيمي الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، (١٤٢٠هـ).

مناهل العرفان في علوم القرآن، لمحمد عبد العظيم الزُّرْقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط٣، (د – ت)

الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه، لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي، تح: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي – جامعة الشارقة، بإشراف: الشاهد البوشيخي، مجموعة بحوث الكتاب والسنة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الشارقة، ط١، (١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م).

همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، تح: عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية، مصر، (د . ت).